



رُسُلهم اِبنِ خلدون
في

تأسيس علم النفس . ؟

بقلم الدكتور عبد الرحمن عيسوي

لقد اسهم العلماء العرب في سبى ألوان المعرفة المعروفة في زمانهم ، ووضعوا أسس كثير من العلوم الحديثة . وكانت جهود العرب وأعمالهم الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة . فليس صحيحا ما يقال على لسان بعض المستشرقين من ان العرب مجرد نفلة للتراث اليونانى ، وإنما الواقع - كما يشهد كثير من المنصفين من المستشرقين - أنهم ضربوا بسهم وأفر في العلوم الطبيعية والرياضية والطبية والفلسفة إلى جانب علوم القرآن والفقه والحديث . فالعقلية العربية عقلية مبتكرة خلاقة وليست فقط عقلية تحليلية . ومن الأدلة على تأثير العرب في الحضارة الغربية ان كتبهم ظلت تدرس في الجامعات الاوربية حتى القرن السابع عشر .

وبالنسبة للعلامة العربى عبد الرحمن بن خلدون يقال - بحق - إنه واضع أساس علم الاجتماع الحديث وليس اوجيبست كونت كما يزعم علماء الغرب .

وفى هذا المجال محاولة لالتقاء الضوء على الحقائق النفسية التى أدركها فكر ابن خلدون . ومحاولة للتخفيف من مدى إسهام ابن خلدون فى علم النفس فنساءل هنا هل يعد ابن خلدون مؤسس علم النفس الحديث كما هو مؤسس علم الاجتماع ؟ من خلال تحليل مقدمته سنرى ما الذى يمكن أن يستخلصه الفارىء بالنظر السيكولوجية الحديثة .

○ نشأته وحياته ○

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ولد فى تونس (١٣٣٢ هـ - ١٤٠٦ م) ويعتبر مؤرخا وفيلسوفاً وسياسياً ماهراً . درس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ ولقد عينه ابو عنان سلطان تونس واليا على الكتّابة . وسافر الى الأندلس فانتدبه ابن الأحمر

صاحب غرناطة سفيرا الى ملك فسنالة . ورحل الى مصر ودرس في الازهر الشريف وتولى قضاء المالكية حتى وفاته ، ولما حاصر نيمور لنك دمشق فصدده ابن خلدون راجيا إنقاذ المدينة ، لكنه أخفق ، وابن خلدون عالم دقيق الملاحظة . راجع الفكر بعبد النظر في أحكامه التاريخية . ألف في فلسفة الاجتماع وفي فلسفة التاريخ كثيرا من الكتب لم يصلنا من إنتاجه سوى مقدمة كتاب العبر المشهور بمقدمة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر وقيل عن مقدمته إنها خزائن علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية (١) وفيها يلى أراؤه النفسية ومفابلاتها الحديثة .

○ نزته العلمية والموضوعية ○

كان ابن خلدون يدين بما نسميه اليوم بالموضوعية في البحث العلمي «التاريخي وبستبعد أثر العوامل الذاتية» . فهو يدعو المؤرخ لنحري الحقيقتة في الخبر التاريخي مشيرا إلى ضرورة تخلصه من التشيع أو التعصب .. ولما كان الكذب منطرفا للخبر بطبيعته وله أسباب نفثضيه . فمنها التشيعات للأرا . والمذاهب ، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمهيع والنظر حتى نتهين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لأول يهله . وكان ذلك المبل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فنفع في قبول الخطأ ونفله «^(٢) الموضوعية من سمات العلم الحديث بما في ذلك علم النفس^(٣)

يلوح ان ابن خلدون كان يقبل وجود السحر والطلسمات والحسد ، ولكنه كان يرى أن السحر محرم . وأن الساحر شخص شرير لا يفعل الخير ، وان السحر بضر بالبشر . أما الحسد فيقول «من قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين . وهو تأثير من

نفس المعبان عندما يستحسن بعنه مدركا من الذوات او الاحوال . وبفرط في استحقاقه
وبنشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يردم معه سلب ذلك الشيء عمن انصف به . فيؤثر
فساده ^(٤) فلا يؤيد السحر ولا التجيم وبفسر الحسد نفسرا معنولا والحسد في الفكر
السيكولوجي الحديث عبارة عن انفعال ناتج عن حرمان الحاسد .

○ اثر البيئة في نمو الفرد ○

تدل كتابات ابن خلدون على أنه كان بناصر قضية البيئة بتأثيرها في شخصية الانسان
يقول «لا شك أن كل صناعة مربية يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عتلا جديدا تستعد
به لقبول صناعة أخرى . وينتهي بها العقل لسرعة الادراك للمعارف . ولقد بلغنا في تعليم
الصنائع عن أهل مصر غابات لا ندرك مثل أنهم يعلمون الحمير .. مفردات من الكلام
والأفعال .. وحسن ^(٥) الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان
ذكاء في عقله وإضاءة في فكره . والغريب أن نلمس تلك الشمولية في الفكر الخلدوني
فنجده لا يقتصر التأثير في العقل على التعليم وحده . وإنما المهن والحرف وشئى مناشط الحياة
ومجالات احتكام الفرد مع الحياة العادية والتفاعل وايها والمحاكاة والتقليد ثم يقول إن
النفس إنما تنشأ بالادراكات ومعنى هذا ان النفس نتكون عن طريق إدراك حقائق العالم
الخارجي المحيط بنا من أناس وأشياء . وهذه نظرة تتفق مع وجهة النظر الحديثة . ويؤكد أن
الاختلاف الملاحظ في سلوك البدوي والحضري لا يرجع إلى اختلاف الطبيعة الانسانية
عند كل منهما ، وإنما يرجع الى افتاق الملكات والصنائع والأداب والعوائد والأحوال
الحضرية بما لا يتوفر للبدوي ^(٦) . ولكنه لا ينتقص عنه شئ في جيلته أو بقطرته . وبالمثل
لا يرجع تأخر أهل المغرب العربي عن أهل المشرق الى طبيعتهم الانسانية وإنما الى
ظروفهم البيئية ولعل ابن خلدون في هذه المساواة في الطبيعة الانسانية يسمو بفكره فوق

بعض النزعات الحديثة التي كانت ولا يزال بعضها يرى أن الجنس الأبيض أو أن الجنس الألماني مثلا يفوق غيره من الأجناس الأخرى ، ومن ثم يحق له ان ينسلط على بقية الأجناس . ولقد أثبت العلم الحديث بطلان فكرة تفوق أى جنس من الأجناس وانما الانسان هو واحد في كل زمان ومكان اما الاختلاف فيرجع الى اختلاف الظروف الثقافية وما يوجد في بيئة الفرد من فقر معرفي او غنى من حرية او عبودية من تعليم او جهل .. الخ .

حفا ان التأمل في فكر ابن خلدون يلمس انه كان يؤمن بأن العوامل البيئية في شخصية الفرد ، فهو يفرد فصلا في مقدمته بنحدث فيه عن تأثير العوامل الطبيعية في ألوان البشر والكثير من أحوالهم . فالأقاليم المعتدلة وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا .

كما يخصص فصلا عن (أثر الهواء في اخلاقي البشر) ويرى ان حالة الحرارة والرطوبة نسب الشعور بالفرح والسرور وما يؤكد إيمانه بانثر البيئة قوله باختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم .. والمعروف حديثا أن ظروف الحرارة والرطوبة والمبردة والتهوية وما الى ذلك تؤثر في الروح المعنوية للأفراد .^(٧)

ويرى أن للتغذية دورا أساسيا في تكوين طباع البشر ونجد مع ذلك هؤلاء القافدين للحبوب والادم من أهل الفغار احسن حالا في جسيمهم وأخلاقهم من اهل النلول المتخمسين في العيش . فألوائهم أصفى وأبدانهم أنقى واشتياهم اتم واحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف واذهانهم أنقى في المعارف والادراكات .^(٨)

ويرى أن السبب في ذلك هو أن كثرة الأغذية ووطوبائها نولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد افطارها في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة . وينبع ذلك انكساف الالوان وبيع الاشكال من كثرة اللحم . وتغطي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجى . البلاد والغفلة والانحراف .

والمعروف حديثنا ان كثرة تناول اللحوم من عادات الطعام السيئة وان التغذية الجيدة تساعد على النمو الجسمي السليم للطفل . وان حالة الشبع الزائد تؤدي الى الكسل والتراخي وفلة الانماج . (١١) .

○ إيمانه بفكرة التخصص المهني والعلمي ○

كان ابن خلدون يؤمن بما نعرفه الآن بفكرة التخصص المهني فيقول (من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة اخرى (١٢)) ويرجع ذلك الى ان الملكات من صفات النفس أو العقل . ثم يشير الى فكرة الاستعداد العقلي أو المهني الذي نعرفه اليوم فيقول (ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات) ويفصد بذلك أن الاستعدادات الفطرية أو الوراثية تساعد على اكتساب المعارف وانما المهنة . وهذه من المبادئ الحديثة التي نتوخاها في التوجيه المهني والتربوي للأفراد بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بحسب ما تسمح به قدراته واستعداداته وميوله وسهات شخصيته وخبراته المختلفة وبرى أنه من الصعب على الفرد أن يتفوق في مجال تخصص معين ثم التفوق في مجال آخر وبصدق هذا في نظره على المهنة كالنجارة والبناء كما يصدق على المعارف والعلوم . ويتحدث ابن خلدون عن بعض الصناعات كالفلاحة والبناء والطب والتجارة والحياطة والتوليد . ويشبه هذا اهتمامنا في الوقت الحاضر بالتعليم المهني الفني . وليس في كلامه ما يشير الى اسئنان مثل هذه الأعمال أو احتقارها وهي من الأفكار التي مازلنا نحتاج اليها الآن .



○ التغذية والطب ○

اهتم ابن خلدون بفكرة التغذية وإدراك أثر الغذاء على الصحة « واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الاغذية » كما قال رحمته الله في الحديث الجامع للطب .. المعدة بيت الداء والحمية (الجوع) وأس الدواء وأصل كل داء البردة أي ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل ان يهضم ثم بشرح دورة الغذاء وتقبله في المعدة وتحويله الى دم بطريقة لا تختلف كثيراً عما نجدنا به العلم الحديث اليوم ^(١١) . ويتحدث عن بعض العادات الصحية وأثرها على الصحة فيقول : « ان انعدام النشاط الرياضي عند أهل الامصار . حيث انهم وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والامصار » ^(١٢) ولذلك كان يرى أن أهل المدن أكثر عرضة للمرض من أهل البادية . وأن الطعام البسيط الخالي من التوابل أكثر صحة . وكذلك الرياضة وركوب الخيل والصيد . وبشبه هذا الموقف ماذهب اليه البعض الآن من اعتبار كثير من الأمراض التي نعاني منها الآن وليدة الحضارة والمدنية الحديثة المعقدة . وهكذا فقد أدرك ابن خلدون أن حياة البادية بما فيها من هواء وبساطة وسهولة أكثر جلياً للصحة من حياة الحضارة .

○ التدريب ○

المتأمل في فكر ابن خلدون يلاحظ انه ادرك أهمية ما نسميه اليوم بالتدريب لابرار المواهب وتنمية القدرات . ولذلك فقد أفرد فصلاً في « أن الصنائع تكسب صاحبها غناً وخصوصاً الكتابة والحساب » وفي شرح ذلك يقول : « ان النفس الناطقة (العقل) موجودة في الانسان وجوداً بالقوة بالمعنى الارسطي . وانها تخرج من القوة الى الوجود وبالفعل عن طريق تجميع العلوم والادراكات والخشكة في التجربة والصناعة والحضارة والآداب والدين

فالكثابة والحساب تسميان الخيال والعقل .

وتنضم هذه الفكرة فكرة حديثة أخرى هي انتقال أثر التدريب في التعليم الحديث حيث يستفيد المتعلم من خبراته السابقة في تعلم الأمور الجديدة المشابهة للخبرة القديمة

○ منهج الطبيعة الانسانية ○

يقول إن الانسان قد شاوخته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء .. وإنما غلب عليها بالفكر « فالانسان يتنازع عن الحيوان بفدونه على التفكير والاستفادة من الخبرات ومن المعاف والتعاون مع بنى جنسه والاجتماع بهم وقبول الأديان .. ونتيجة لفكر الانسان الذى لا يتوقف برهة . تنشأ العلوم والصنائع . ويرى ابن خلدون أن فكر الانسان ينزع بالطبيعة وبالقطرة إلى تحصيل مالبس عنده من الادراكات . ف يرجع إلى من سببه يعلم أو زاد عليه بمعرفة . وبسببه هذا الميل ما يحدث عنه علماء النفس المحدثون من الدافع نحو حب الاستطلاع والرغبة الطبيعية في البحث والتنقيب والاستكشاف وارتداد مجاهل الطبيعة وسير أغوار الاشياء وكان يرى أن العلم والتعليم طبيعى في المجتمع البشرى تنشوف نفوس أهل الجبل الناشئ الى تحصيل ذلك فبفزعون الى أهل معرفته » (١٤)

○ العروق الفردية ○

في حديثه عن التعليم يدرك ابن خلدون أن هناك مانسبه الآن بالفروق الفردية في المستويات العلمية وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعى لانجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعبها مشتركا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدىء فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم التحرير ، والملكة إنما هي للعالم أو الشاى في

الفنون دون من سواها فالتناس لبوا سواسية في كم وكيف مايتلكون من قدرات واستعدادات وميول وخبرات .

○ اختلاف طرائق التدريس ○

لقد أشار ابن خلدون إلى أن العلم أو الحفيظ وإن كانت واحدة إلا أن العلماء يختلفون في طرق تدريسها أو تعليمها لأنباعهم ، وأن لكل منهم اصطلاحاته . إن تعليم العلم صناعة ، لاختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الانمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به وهي نفس الفكرة المعاصرة من وجود العديد من طرائق التدريس .

○ الانفعالات ○

يتحدث ابن خلدون في فصل عن النصف وأحواله : فيصف بعض الحالات التي تندرج الآن تحت اسم الانفعالات منها الفرح والحزن والقبض والبسط والغضب والرضا والعبد والشكر . كما يتكلم عن الحواطر النفسانية كما يتحدث عن مجاهدة النفس ومحاسبتها والورع^(١٥)

○ تفسير الاحلام ○

يخصص ابن خلدون فصلا لما سباه (علم تعبير الرؤيا) وبرى أن الرؤيا موجودة في صنف البشر على الاطلاق . وإن تعبها او تفسيرها مهم . وأن الرؤيا من (مدارك الغيب) وكان يرى أن النوم عبارة عن تعطيل حواس الانسان . وهي نفس الفكرة التي

نصف بها النوم في أماننا هذه . فالتوم عبارة عن انخفاض في مستوى العنبات الحسية للنائم . أي ضعف استنبال المنبرات الخارجية . فأنت عند ما تنادي النائم بصوت خفيض فلا يسمعك لأن حواس الاستنبال عنده ضعيفه وبفسر الرزيا بأنها ناجمة عن مجرد الانسان من الشواغل الحسية أثناء النوم . ولذلك ينصرف قلبه الى إدراك الحقائق الغيبية . ويفرق ابن خلدون بين الرزيا وبين أضغاث الاحلام الكاذبه . فالرزيا تنزل من الروح العقل المدرك . اما أضغاث الاحلام فهي الصور المأخوذة من المحافظة او الذاكرة في أثناء البغظة . كذلك أدرك ابن خلدون أن للاحلام معان رمزية بصورها الخيال فالسلطان براه النائم كالبحر والعدو براه حبة لعظم ضررها والأواني تنسب بالنساء لأنهن أوعبه . هذه الرمزية في الاحلام بقرها العلم الحديث ويؤكد أن الاحلام تعبير رمزي . وأن هذه الرموز تستق من حضارة الانسان ويميز ابن خلدون كما يميز علماء النفس اليوم بين الحلم الواضح الصريح الذي لا يفتقر الى تعبير وبين الحلم الغامض .

وعلى الرغم من أن هناك رموزا للأحلام إلا أن ابن خلدون يرى أن تفسير الرؤيا يختلف باختلاف الحالات الفردية . وينوقف على الفران والملايسات والظرف الفردية لصاحب الرؤيا ولذلك فهو يحذر المفسر من التعميم . فالبحر قد يدل على السلطان ولكنه في موضع آخر قد يدل على الغبط أو السهم . والحية تدل على العدو وفي موضع آخر تدل على كائن الاسرار أو على الحياة . وما زال هذا الاتجاه في تفسير الاحلام سائدا . فتفسير حلم مريض معين يختلف عن تفسير نفس الحلم عند مريض آخر^(١٨)

○ الأمراض العقلية ○

في حديث ابن خلدون عن علم الطب لا يذكر شيئا عن الامراض العقلية او النفسية ار الطب العقلي وانما يدرك درر الالباء في الشفاء وذلك عن طريق الابحان وصدق العبدة .

○ مراعاة مستوى عقل المتعلم واستعداداته ○

يرى ابن خلدون أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل وإن كثرة التأليف في العلم تضر بالناس وتجعل من الصعب الوقوف على غاياته . وإن اختلاف طرائق التدريس ومصطلحات التعليم تجعل التلميذ يقضى عمره دون أن يقي بما كتب في صناعة واحدة ويضرب لذلك مثلا بما كتب في المذهب المالكي . قالكتب متكرره والمعنى واحد ^(١٧) . ولم يقتصر المعلمون على تعليم المذاهب فقط لكان التعليم سهلا . وينادى بعدم مطالبة المتعلم بما هو فوق طاقته وبما يفوق عمره .

ونحن الآن نتادى بعدم حشو ذهن التلميذ بالكثير من المعلومات المحدودة ولكن ابن خلدون ينادى بمبدأ آخر من المبادئ التربوية الحديثة وهو أن كثرة الاختصاصات تخلة بالتعليم التي تختص بالمعاني الكثيرة وفي هذا عسر في الفهم وإخلال بالإلاعه . وهذا فساد في التعليم وإخلال في التحصيل لضرورة تنيع ألفاظ الاختصار العويصة ويفضل الموضوعات البسيطة المطولة . ونشبه هذه الدعوة حركة محاربة رجال التربية في العصر الحديث للمختصرات والمملخصات المخلة بالعلم والمعرفة . كما في هذا انشابة لتكررة اللفظية .

التي هي من عيوب التربية التقليدية التي نعد الى حشو اذهان التلاميذ بالمصطلحات والألفاظ التي لا يدركون معناها ومغزاها ومدلولها وتعبيرا عن ابحاثه بالاستعدادات . يقول : كل ميسر لما خلق له . فلكل فرد قدرة على التفوق في علم معين دون غيره ^(١٨)

○ مبدأ التدرج في التعليم ○

من المبادئ الهامة التي بنادى بها ابن خلدون مبدأ التدرج في تعليم التلميذ والانتقال به تدريجيا من موضوع الى آخر (اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا اذا

كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلًا فقليلًا) .

○ الطريقة الكلية في الاستدكار ○

يرى ابن خلدون أن المتعلم يجب أن يلقى عليه مسائل من كل باب من الفن من أصول أو مبادئ ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده .. ثم يرجع به الى الفن ثانية ويسنوفى الشرح والبيان . ويخرج من الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف . ثم يرجع به ثالثًا فلا يترك عوبصًا ولا مهملًا ولا مغلفًا إلا وضحه وفي هذا إدراك لفكرة الانتقال بالمتعلم من الاجمال الى التفصيل من الكل الى الجزء ومن العام الى الخاص . وهي فكرة من الأفكار التي نادت بها مدرسة الجشطالت في علم النفس الحديث حين رأت أن الادراك الحسى ينظف من العام الى الخاص أو من الكل العام المبهم الى التفصيل والدقائق والجزئيات ، فأول ما يدرك الفرد يدرك الانبياء بشكل كلي إجمالي .

كذلك يدرك ابن خلدون فكرة التكرار في التعلم وهي من المبادئ الحديثة أيضا حيث افرد لها ادوارد ثورنديك قانونًا خاصًا سماه (قانون التكرار) ويرى أن التعلم يتم في ثلاث مراحل من (التكرارات) وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك وفي ذلك مراعاة للفروق الفردية بين المتعلمين .

وينفذ ابن خلدون أساليب التعليم المنتشرة في عهده (وقد شاهدنا كثيرًا من المعلمين لهذا العهد الذي ادركناه بجهلون طرق التعليم وإفادته ، وبحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المغلفة من العلم وبطاليونه باحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، وبكلثونه وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غابات

الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم والاستعدادات له تنشأ تدريجياً (١١)

وهنا نلمس حرصه على مراعاة قدرة المتعلم ونضوجه الذهني وهي الفكرة التي نادى بها جيزل في العصر الحديث حين دعا لضرورة التلائم في تعليم الطفل بين النضج والتدريب فلا تتعجل النمو ونطالب بالآلا طاقة له به ولا نهمله كلية فتضيع فرصة التعليم وهكذا نرى أن ابن خلدون له فضل السبق في هذه النظرية على جيزل .

وهنا نلمس أيضاً إدراك عبقرية الفيلسوف العربي (ابن خلدون) لبداً من المبادئ التعليمية الهامة وهو عدم البدء مع المتعلم بالأمر الصعبة وإنما لابد من التدرج من السهل إلى الصعب أو بما يعرفه المتعلم إلى ما يجتهد وفي ذلك تنويع للمتعلم وحفز لفهمه وإثارة لاهتمامه .

○ الأمثلة الحسية ○

ومن المبادئ التعليمية الهامة التي أدركها ابن خلدون مناداه بتوضيح الدروس بالاستعانة بالأمثلة الحسية ، وبشبه هذه الاستعانة بالوسائل السمعية والبصرية المعينة على التدريس في وقتنا الحاضر .

وبقول أبقراط: إذا بدأنا التعليم بإعطاء المتعلم غايات العلم في أول الأمر أدى ذلك إلى كلل ذهنه وإلى تكاسله والبعد عن قبوله وإلى هجرته ، أي النفور من العلم وكرهه وليس ذلك من سوء العلم نفسه وإنما من خطأ المعلم . فالتعلم إنما يكون بحسب طاقة المتعلم وقدرته .

وينادي ابن خلدون بالترتيب والنظام في التدريس فلا يخلط المعلم مسائل كتاب بمسائل غيرها حتى ينتهي منه المتعلم .

○ انتقال اثر التدريب السلبي والاجبايى ○

يشير ابن خلدون إلى إمكان مانسبه اليوم بانتقال أثر التدريب ، فإذا أتم المتعلم بمسائل كتاب معين بسنوى منه على ملكة بها ينفذ ق غيره ، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ماى علم من العلوم استعد بها لقبول ماينى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض الى ما فوق ^(٢٠) لقد كان لابن خلدون فضل السبق على كثير من علماء النفس التعليمي المحدثين فى إدراك مانسبه (بالاثر السلبي للتدريب) حين يعوق تعليم مادة معينة تعليم مادة اخرى بعبدة عنها ولذلك يقول (ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة فى التعليم الا يخلط على المتعلم علمان معا ، حينئذ قل ان يظفر بواحد منهما لما فيه من تفسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما الى نهم الآخر فبستغلنان معا وبستعصبان ويعود منهما بالخيبة وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسهيله مفتصر عليه فربما كان ذلك اجدر بتحصيله ..) ^(٢١)

والمعروف حديثنا ان انتقال اثر التدريب من مادة إلى اخرى لاينم إلا بمقدار ما يوجد بين الاثنين من عناصر .

○ فكرة الاستمرارية أو الممارسة ○

يرى ابن خلدون عدم نطبع مجالس الدروس والتباعد بينها حتى لا يعرض المتعلم للنسيان . لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوى الفعل تنوسبت الملكة الناشئة عنه . وارتباط العلم بالممارسة والتكرار وكذلك استمرارية تحصيل العلم وانصافها من المبادئ التعليمية الناجحة والممارسة نعصم من النسيان .

فتعليم الجمع والطرح يفيد في تعليم القسمة لأن العملية الأخيرة تتضمن عناصر من

العمليين الأوليين .

ومن الأمور التي تساعد المتعلم على التفكير المنطقي الذي يوضح صحة الفكر أو فسادة . ثم معرفة الالفاظ ودلالاتها على المعاني لاحكام الاستدلال والوصول إلى المعاني المجردة .

○ الإلهام أو الاشراف ○

في عملية الابداع نهبط الفكرة على ذهن المبدع دفعة واحدة كما لو كانت وحيا أو إلهاما وابن خلدون يعي هذه الحفظة الفكرية ..(إن الجدال وكثرة المناقشات قد تسبب الخلط في الذهن والارتباك في الفهم فانرك ذلك كله واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي .. مستعرضا للفنن من الله .. فاذا فعلت ذلك أشرفت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك فاذا حصلت هذه المعرفة ترجع لتضعها في قوالب الأدلة وصورها وضعها في القانون الصناعي .. ومن ثم اكسه صور الالفاظ وبرزه إلى عالم الخطاب والمنافهة وثبت العرى صحيح البيان) .

وتنبه هذه العملية عملية التحفيق أو التحقق التجريبي واصدار الاحكام النهائية في عملية التفكير كما نوصف في العصر الحديث .

وبنادى بتجريد الفكر من جميع الأوهام .. واستمطر رحمة الله تعالى منى أعوزك فهم المسائل تشرقي عليك أنواره بالالهام إلى الصواب^(٢٢)

○ التعليم في الصغر ○

يرى ابن خلدون أن التعليم في الصغر يكون أشد رسوخا وأنه أصل لما بعده . ولذلك كان تعليم القرآن الكريم أول ما يتعلمه الصبي العربي لرسوخ الايمان والعقائد^(٢٣)

○ العتاب ○

لابن خلدون نظرية متقدمة في تحريك استخدام الفسوة والسدة والفهر والفر مع المتعلم نفوق أراء كثير من رجال التربية وعلم النفس حتى في عصرنا الحاضر ، ففي فصل عن (أن السدة على المتعلمين مضرّة بهم) يقول (إن أرواف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيافى أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والفهر من المتعلمين أو المالبك أو الخدم سطا به الفهر وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسف وحمل على الكذب والخثب وهو النظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الأبدى بالفهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة) .

وهذه من المبادئ النفسية الحديثة إذ المعروف أن التعلم يتم عن طريق تعزيز او مكافأة الاستجابات المرصبة ، وغير عن ذلك ابفان بافلوف عالم الفسيولوجيا الروسى فيما أساء بالتعزيز ، وعبر عنه ادواود نورنديك فيما أساء (قانون الاثر) ولقد سبغها في ذلك ابن خلدون بمئات السنين .

كذلك بلغت النظر الى مبدأ هام من المبادئ السيكولوجية . وهو ان السدة مع الطفل تدفعه إلى الكذب والخداع هروبا من العقاب الصارم والمعروف أن المعاملة الفاسية نولد في الطفل الشعور بكراهية المدرسة وبضعف الشخصية وانسحابها . وأن الكذب بصيح عادة عند الطفل كما أن السدة تفسد معانى الانسانية في نفس الطفل وتقتل روح الشجاعة والحسبة والمدافعة عن نفسه ومنزله . وبرى ان سوء أخلاق اليهود يرجع الى سوء نظم تعليمهم ونرضهم للفسوة والسدة ولذلك بصفهم ابن خلدون بالخابث والكبد .

وبوصى الآباء والمعلمين الا يستبدوا بولدهم في التأديب . والمعروف سيكولوجيا أن لمعاملة الطفل ولعلافته بالوالدين أثرا كبيرا في صحته النفسية ^(٢٤)

على ان ابن خلدون لا ينكر العقاب كلبة وإنما المعتدل منه . فلا ينبغي لمعلم الصبيان أن

يزيد في ضربهم . ويستشهد بوصية الرشيد لمعلم ولده الامين . وطاعة التلميذ للمعلم واجبة ويجب أن يعلمه الأخيار والاشعار والسنن ويعينه من الضحك في غير موضعه . مع استفادة المعلم من المعلم دون أن يجزئه حتى لا يثوب ذهنه ولا يسرق في المساحة أو التهاون . ويستخدم اللين والتفرب من قلب الطفل فان رفضها غلبه بالنسبة والغلظة . والعقاب السيكولوجي المعتدل من مبادئ التعليم الخلفي والمسلكي المرغوب حتى في وقتنا هذا .

○ منزلة ابن خلدون في الفكر السيكولوجي ○

بعد هذه المرحلة الطويلة عبر مقدمته والنظر إليها بالمنظار السيكولوجي الحديث نستطيع أن نجيب على التساؤل الوارد في مسهل هذا البحث فتقول، إن ابن خلدون وإن كان قد أدرك ونوصل لكثير من المفاهيم السيكولوجية الحديثة من حيث اثباته باثر البيئة في نمو الفرد وإدراكه للفروق الفردية وفكرة الاستعداد العقلي ومراعاة مستوى نضج المعلم وانصاف فكره بالموضوعية والدقة وإدراك فبعض التخصص في المهد وفي العلوم وأثر التغذية على الصحة وعلى الأحوال المزاجية للأفراد وقيمة التدريب والتكرار والممارسة والمران ومفهومه الناضج عن الطبيعة الانسانية واكتشافه لدافع حب الاستطلاع وانتقائه لطرائق التدريس الرديئة ووصفه بعض الانفعالات ، وتفسير الأحلام بالرجوع إلى مدلولاتها الرمزية ، وظروف الحالم . وتأبيده للطريقة الكلية في الاستظهار والاستعانة بالأمنلة المحسوسة وإدراك امكانية انتقال أثر التدريب السليبي والايجابي ، والالهام أو الاشراف في هبوط الأفكار إلى الذهن . ورأيه في العقاب والسدة والصرامة مع الطفل وفهمه لمضمون قانون الأثر أو التعزير .. الخ

نقول على الرغم من فضل السبق لابن خلدون في هذه المجالات إلا أنه لا بعد

واقصع أسس علم النفس الحديث ذلك لأنه لم يتحدث عنه ضمن تصانيفه للعلوم المختلفة ولم يتحدث عن دواقع السلوك أو الامراض النفسية أو العقلية وطرائق علاجها وتشخيصها ولكن ببغى للفيلسوف الكبير فضل السبق فى كثير من المفاهيم السيكولوجية الحديثة وحضوع فكره لسمات العلم الحديث وتقديره لانسانية المتعلم والمحافظة على سعادته .

والواقع أن التراث العربى يملوء بالخفائق السيكولوجية التى أدركها العرب والتى تسبب خطأ لعلماء القرب المحدثين .

لذلك كم نحن فى حاجة إلى إحياء هذا التراث ويعثه من جديد .



وله حالاً يعملون بصدور وعلم و حلاص حتى إذا اشكل
على امر من الامور رحمت لهم في حله وعملت بمسورهم
فتكون دمي ما وتكون مستر عليهم و لصرحة في
لقبي

سمود

● الهوامش ●

- ١ - المنجد في اللغة العربية والاعلام الطبعة ٢١ دار المشرق .
- ٢ - المقدمة ص ٢٨ بيروت .
- ٣ - راجع كتاب المؤلف القياس والتجريب في علم النفس والتربية .
- ٤ - المقدمة ص ٣٩٨ .
- ٥ - المقدمة ص ٣٤٣ .
- ٦ - المقدمة ص ٦٥ .
- ٧ - المقدمة ص ٦٩ .
- ٨ - المقدمة ص ٧٠ .
- ٩ - راجع كتاب المؤلف علم النفس والانتاج .
- ١٠ - المقدمة ص ٣٢ .
- ١١ - راجع كتاب الباحث (علم النفس الفسيولوجي) باب سيكولوجية الغذاء .
- ١٢ - المقدمة ص ٣٣٠ .
- ١٣ - المقدمة ص ٣٤١ .
- ١٤ - راجع كتاب الباحث معالم علم النفس للوقوف على طبيعة الدوافع الانسانية للسلوك .
- ١٥ - راجع كتاب الباحث علم النفس ومشكلات الفرد .
- ١٦ - راجع كتاب علم النفس الاجتماعي .
- ١٧ - المقدمة ص ٣٩٩ .
- ١٨ - المقدمة ص ٤٤٧ .
- ١٩ - المقدمة ص ٤٤٤ .
- ٢٠ - المقدمة ص ٤٤٤ .
- ٢١ - المقدمة ص ٤٤٥ .
- ٢٢ - المقدمة ص ٤٤٦ .
- ٢٣ - المقدمة ص ٤٤٧ .
- ٢٤ - علم النفس والانسان للباحث .